

الفئة

انتهت هذه الدراسة النظرية والتطبيقية للخطاب الشعري من خلال قصيدة "عاشق من فلسطين" إلى عدة نتائج؛ منها ما هو مبثوث في متن البحث وبعض منها آثرنا أن نعرضه في الخاتمة لأهميته في البحث النصي. ولعل الميزة العامة لهذه النتائج هي تنوعها بين دفع أغلوطات وإزالة شبهات من جهة، وإقرار نتائج واستنباط أُنخر من جهة أخرى. أضف إلى ذلك تفاوتها في العموم والخصوص والقطعية والاحتمالية. ويمكن استظهار ذلك من خلال العناصر الآتية:

❖ دفعت المراجعة النقدية لبعض المقولات اللسانية الأغلوطة القائلة بثانوية هذا العلم، وعدم جدواه في الدرس اللساني، و أزيلت - في مقابل ذلك - شبهة من زعم بأن لسانيات النص هي نفس للسانيات الجملة أو بديل إحلالي عنها؛ فالنظريات اللسانية على تنوع مداخلها وتباين طرائقها ومرتكزاتها، جاءت لتخدم اللغة بمعناها الشمولي، بدءا بالفونيم والمورفيم فالتركيب ثم النص والخطاب. وعليه تغدو لسانيات النص حلقة ضرورية ومشروعا تكميليا ضمن بحث لساني ضخم.

❖ إن الإقرار بمشروعية وجود هذا العلم إلى جانب الأبحاث اللسانية المتعلقة بالنظام، لا يقصي تلك الثورة النظرية والمنهجية التي أحدثتها عندما وجّه الاهتمام إلى البنية الكلية للنص، واجتهد في ضبط وظائف اللغة الطبيعية، فضلا عن احتكامه لعناصر التواصل في مقارنته للخطاب. وعَقِبَ هذا المنحى الجديد استفادةً من فروع لغوية ونفسية واجتماعية وحاسوبية، فتنوعت بذلك الدراسة وتشعبت مفاهيمها وتعددت توظيفاتها.

❖ هذه الخصوصيات استوجبته طبيعة الوحدات المعالجة في لسانيات النص، وبخاصة مفهوما النص والخطاب؛ فهذان المصطلحان متداخلان إلى حد التماهي، على أن تدقيق النظر في تعريفاتهما شكك في انفراد النص بالكتابة والخطاب بالشفوية، تلك الرؤية التي تشكلت من أصلية تحققهما لا تجد مكانا لها في الخطابات المسجّلة. كما أن التمييز بين النص والخطاب على أساس الطول أو العموم، طبعه التعارض بين النظرية والتطبيق، والتناقض في التصور بين جاعل النص أكبر وأشمل من الخطاب والعكس. وعليه لا فرق بين النص

والخطاب من حيث التحديد الكمي والماهوي؛ إنما يكمن الفرق في استغناء النص نسبياً عن آليات التواصل وعناصره، وكفاية بنياته اللغوية في التحليل، واستدعاء الخطاب مقامه التواصلية من متكلم و مستمع وملابسات، وارتباط بنياته اللغوية بذلك.

❖ تُركِّز لسانيات النص في موضوعها على ما يكون به المعطى اللغوي نصاً. وقد تبين بعد عرض المقترحات النصية لبعض الرواد، أن النصية يمكن أن تتحقق في ظاهر المعطى اللغوي وباطنه عبر مستويات لغوية وعبر لغوية مختلفة، ومن خلال مجموعة من الآليات استنبطها النصابيون من تداول الناس اللغة، وجمعوها في مفهومين شاملين هما الاتساق والانسجام.

❖ استدعى إثبات نصية الخطاب الشعري رُبطَ تحركات اللغة بمقصدية الشاعر ومقبولية المتلقي، دون إهمال المعارف المختزنة عن الواقع العام والخاص. وقد تطلَّب استكناه الآليات الخطابية في القصيدة الحديثة اعتماد التأويل في استحضار مقامها التواصلية، الذي تراوح بين الخفاء والتجلي، والقبض على روحها الجمالية المراوغة.

❖ أثرت شعرية الخطاب على وسائل الاتساق؛ بحيث أكسبتها أبعاداً دلالية إيجابية، فضلاً عن دورها في نسج أسطر الخطاب وصناعة جو خطابي للنص، تتفاعل على ضوئه عناصر اللغة والمقام. فقد أسهمت الإحالة في ربط أجزاء الخطاب من خلال استدعاء العناصر الإحالية مراجعها، وعبرت تلك الروابط الإحالية عن عناية الشاعر بقضية ما وترابط الأحداث بها. وهو ما لوحظ كذلك في الحذف؛ حيث برز دور المتلقي في إثبات نصية الخطاب عن طريق الاجتهاد في معرفة العناصر المحذوفة بناءً على السياق. وبالإضافة إلى هذا الدور الاتساقية الذي صنغته الاستبدالات النحوية-الدلالية اضطلع التكرار والتوازي بتحقيق التماسك على المستوى المعجمي، وإضافة تناسق جمالي على الجانب الموسيقي.

❖ اتسم خطاب "عاشق من فلسطين" باتساق قوي، جسَّده الحضور الكثيف للإحالة والحذف والتكرار والتوازي والربط مع خصوصية في توظيف هذه الآليات. فقد غابت أسماء الإشارة والأسماء الموصولة، وحضرت بكثرة الضمائر المتصلة وأدوات المقارنة فيما يخص الإحالة. وتنوع العنصر المحذوف ليبرز جمالية التلميح في صناعة عقد تواصلية مع القارئ، ويؤكد إسهامات المعرفة المسبقة عن الشاعر محمود درويش وعن الواقع الفلسطيني في استكناه

العنصر العدمي في سطح الخطاب. كما تميّز أسلوب الخطاب المدروس بانتشار ملحوظ للتكرار والتوازي، وكلاهما ارتبط بمقاصد الشاعر وكثافته الشعورية.

❖ إن بعد الخطاب الشعري عن المباشرة وعدم كفاية تماسكه السطحي في معرفة أبعاده الحقيقية، أفضى بنا إلى استنطاق عالم الخطاب من خلال معيار الانسجام، الذي بدأ من الدلالات المعجمية البسيطة، وامتد إلى تفاعل الخطاب مع غيره من الخطابات والنصوص الحاضرة فيه.

❖ وإذا كان الاتساق أدى دوره اعتمادا على ما قدّمه سطح الخطاب من قواعد نصية، فإن عالم الخطاب يضيف إلى ذلك مساهمة المتلقي أو المحلل في تأدية وسائل الانسجام لوظائفها. وهو ما وضّحه استجماع عناصر المقام واستخلاص النصوص المتناصّة مع خطاب "عاشق من فلسطين".

❖ تفاعلت الوحدات الدلالية الصغرى والكبرى في الخطاب الشعري المدروس بحسب نفسية الشاعر؛ فشكل الترادف امتدادا لقناعة أو فكرة ما، تمارس ضغطا شعوريا على محمود درويش، وأكد التضاد التناقض الصارخ والصراع الفكري الذي يحكم نظرة الشاعر المعاصر عموما ومحمود درويش خصوصا للواقع وتقلباته، وعدّرت علاقة الإجمال - التفصيل، وعلاقة العموم - الخصوص عن تفاوت الاهتمام والتركيز بحسب مقصدية الشاعر ومقتضى الحال. وكل تلك العلاقات أفادت لحمّة الخطاب معنويا، وأزالت الغموض الذي اعترى تتابع بعض أجزائه. ولم يكتمل وصف واستقصاء العلاقات الدلالية والمعنوية بين وحدات الخطاب إلا بتمثيله شبكيا؛ حيث تساندت مجموع الحالات والوقائع النحوية والتصورية والمفهومية لبناء عالم الخطاب المدروس.

❖ إن المقام الذي حضر بكيفيات مختلفة في ضبط الآليات الخطابية والنصية السابقة أخذ مكانا له في الانسجام؛ بوصفه وسيلة مستقلة تتشكل من عناصر خارجية تُسهّم في نصية الخطاب، بناءً على المقصدية والقراءة وظروف الزمان والمكان وغيرها مما يصنع المستوى التداولي. على أن المقام في الخطاب الشعري الحديث ينحو إلى العمومية والإطلاق وقلما يتقيد بقيود الواقع؛ وقد تبين من خلال مقارنة خطاب "عاشق من فلسطين" أن المقام

صنعه الخطاب قطعةً قطعةً، إلى أن استقر نسبيًا على عناصره. ومع ذلك يظل الخطاب الشعري ينفجر جمالا ويفيض إيحائية كلما تجددت قراءته وتنوع مقامها.

❖ ويمتد تأثير الشعرية إلى المعرفة الخلفية؛ أي ما يمكن أن يستثمره الشاعر من معرفة بالعالم. فالخطاب الشعري لا يَنْقل الوقائع حرفيا أو يكتفي بتوقع ما يجب أن يكون؛ بل يُعيد بناء الأحداث بطريقة جديدة أو مُحَوَّرة لما هو مألوف، وينتقي من النصوص والأفكار ما يتصل بمقصدية الشاعر وخلفياته المعرفية. واتضح من استقراء التناص أن محمود درويش متأثر ببعض الرواد في الشعر العربي، وقد وظف نصوصهم وخطاباتهم بكيفية تلميحية إبداعية؛ يتماهى على ضوءها النص الغائب في النص الحاضر، وتتوافق فيها الرؤى وتتعارض.

❖ أفرزت وسائل الانسجام قدرة فائقة على تقريب المعنى وفهم الخطاب، مما يجعل لسانيات النص منهجا جيدا في مقارنة نقدية للأعمال الشعرية الحدائثية، التي يستعصى فهمها لدى القارئ. وأكثر من ذلك أكد الانسجام عمق التفاعل بين دلالات الخطاب وعناصره المقامية.

وختاما نشير إلى أهمية إكمال هذا الجهد المتواضع، وذلك بالمزاوجة بين معطيات لسانيات النص وعناصر الشعرية بغية تأسيس منهج لساني نقدي. يأخذ من لسانيات النص علميتها ودقتها في المقاربة الكلية للنصية، ويوظفها مع ما يتلاقى مع النص أو الخطاب الشعري، ويوجّه مفاهيم خاصة مثل الإيقاع والرمز والصورة الشعرية نصيا، لتُصبح قادرة على إدراك- ما أمكن- الأبعاد الحقيقية اللامتناهية للفن الشعري.